عجيبة

سورة الشرح

للشيخ: عبد الله بن فهد الخليفي

-الشيخ لم يراجع التفريغ-

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

السلام عليكم ورحمه الله وبركاته.

سورة الشرح التي يحفظها صغار المسلمين وكبارهم -والحمد لله-: هذه السورة عجيبةٌ جدًا عندي:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ١ وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ٢ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ٣
وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ٤ فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ٥ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ٦ فَإِذَا
فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب ٨

هذه سورةٌ عجيبةٌ بالنسبة لي، وسبب تعجبي منها أنها سورة مكيّة، يعني: نزلت في مكة، يعني: نزلت قبل الفتح، وقبل الجهاد، وقبل الغزوات، وقبل الهجرة... نزلت في مكة: حيث تعذيب الصحابة، وحيث الأذية، وحيث يرمى سلا الجزور على رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وحيث يحاصر في شعب أبي طالب، وحيث تطلَّق بناته، وحيث يقال عنه مجنون وكذاب، وحيث يُمطر بوابل من الشبهات التافهة وحيث وحيث ...

ثم ينزل عليه ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ﴾ لقائلٍ أن يقول: أين الشرح هنا؟ والكلام عن شيء حصل ﴿**أَلَمۡ** نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ﴾.

فـ[الجواب: أن] هذا يبين لك أن التوحيد بحد ذاته -تحت أي ظرف- شرح للصدر، ولهذا نبي الله يوسف كان يتذكر نعمة الله عليه وعلى آبائه بالتوحيد وهو في السجن [﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾].

اليوم كثير من الناس الذين يكون عندهم مشروع دعوي أحيانا يكون مشروعا معقولا، وأحيانا يكون لا: فردوس أرضي، تجده إن لم يحصل هذا تجده دائما مكفهرًا، ودائما يرثي حاله، ودائما يُشجِيه الحديث المحزن والرثائيات والبكائيات، ولا عجب ولا مشكلة أن تحزن لفراق حبيب، أو أن تحزن على مسكين ضل، لكن لماذا لا تذكر نعمه الله عليك؟

﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ بالتوحيد والخير، النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ نزل عليه ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ﴾ ولم يكن عنده جيش، ولم يكن يحقق في الانتصارات، ولم يكن هناك غنائم، ومع ذلك كان صدره منشرحا بالتوحيد.

وكان أصحابه يعذبون أمامه، ومع ذلك كان صدره منشرحًا بالتوحيد.

وأيضا قوله ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ﴾ هذا إما أن تعتبره دليلا من دلائل النبوة وإشارةً إلى ما سيحصل لاحقا من رفع الآذان باسمه، وهذا ما قال به عدد من

المفسرين: أن ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ﴾ لا يقال أشهد أن لا اله الا الله، إلا ويقال أشهد أن محمدا رسول الله.

ولكن حين نزلت الآية كان من يسب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أكثر من يعظمه، فسبحان الله، نعم هي بشارة بِرِفعَةِ الذكر، ولكن رفع ذكره بالسماء بأنه داعيةُ توحيد صابر مصابر مع أهل صدق وصبر، ولهذا ينبغي أن يفرح كل إنسان هو على الخير وعلى الحق الذي يعرف دليله وبرهانه: تبعه الناس أم لم يتبعه، لأنه وإن جُهل في الأرض فهو معروف في السماء بأنه فلان الذي على الحق وعلى الخير.

نعم لا تكونن شهوتك أن تكون أنت وحدك على الخير، لا، [بل] تكون مثل النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ تدعو إلى الخير وترجو.. هذا الذي تثمر دعوته لاحقا.

كثير من الناس اليوم ينتكس بسبب أنه يكون على الخير، ولكن لا يرى الناس يتبعونه عليه، فهو سبحان الله لو صبر قليلا لتبعه الناس على الخير وعلى الحق، لكن ماذا يفعل؟ ينتكس بعد أن ينفذ صبره، ويستولي عليه الشيطان، فإما أن يترك وإما أن ينتكس.

وقول الله عَزَّوَجَلَّ ﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب﴾، هذا من أظهر دلائل النبوة عندي، [لما كان] في مكة وكان الامر شديدا جدًا، النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لو كان مدعيا ...

وأنا حقيقةً لا أحب الإطناب في الكلام في قضايا دلائل النبوة لأن الأمر واضح، وعامه الناس الذين عندهم إشكاليه مع نبوة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ هم عندهم إشكاليه مع وجود الله عَزَّوَجَلَّ أصلا، ومع وجود الأمر والنهي أصلا.. بناءً على نماذج خيالية في عقولهم جعلتهم يكرهون الدين، لأنهم يفكرون بفردوس أرضي ثم بعد ذلك بدأوا يقنعون أنفسهم بشكل عسير أن الدين باطل، وهم كرهوه لأنه يخالف أهوائهم، فصار عندهم انحياز تأكيدي اتجاهه.

فانا ما أريد أن أتعب كثيرا [في الكلام عن دلائل النبوة]، لكن هذا من باب تثبيت أهل الإيمان:

النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لو كان يعني مدعيا -كما يقال- لن يفرض على نفسه وهو في أشد هذه الاوقات موضوع الصلاة واللجوء للصلاة.. هذا آخر شيء عملي ممكن يفكر به انسان ادعى دعوةً ثم هوجم بسببها، هل سيلجأ لمن يكذب عليه -فيما يزعم المشركون-؟

وهذه الآية مصداقها وتطبيقها حديث:

أنه كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقالت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا: لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟

وهذه إشارة إلى قوله ﴿وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ٢ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ﴾

فسبحان الله، يرد هو بمضمون ﴿ فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب ﴾ حين يقول: قال: أفلا أحب أن أكون عبدا شكورا؟

وعلى ذكر هذا: كثير جدًا من الأحاديث النبوية مصداقها في القرآن -حتى كثير مما ينكره الناس- لكنهم لا يهتدون إلى ذلك ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فالذي يستفاد من هذا: أن دعوة الحق، دعوة التوحيد-بذاتها- انشراح للصدر ورفع للذكر، سواء حققنا بذاتها نجاحًا [أم لا].

ثم هذا النجاح مستويات كثيرة، من قدَّر مستوى النجاح الأدنى فيها وهو أن تؤدي ما أمرك الله به، وتغتبط بذلك، وترجو من الله أن يكون لك ذكرا مرفوعا في السماء، من أدَّى هذا فهو الأهلُ لأن ينال الأكثر والأكثر، ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ﴾.

كثير من الناس رب العالمين يهديه، فلا يشكر نعمه الله بل يجلس يسخط هذه النعمة بكثره التذمر، بأننا غرباء وبأننا كذا.. فسبحان الله لا يزداد هداية، بل بالعكس قد يسلب النعمة، فلا يلبث إلا ويحدث ويبتدع لمناكفة الناس الذين حاربوه في سنته التي سار عليها.

وكم رأينا من ذلك شيئا كثيرا، والله المستعان.

(٣٠/٠٦/١٤٤١)